

دراسة وتلخيص

لكتاب

الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام

للدكتور مصطفى حلمي

للباحث المغربي الأستاذ

أحمد رحمانى

نظرة عامة

كتاب الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام تأليف الدكتور مصطفى حلمي الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الدعوة ، الطبعة الأولى 2004م 1424 هـ لدار الكتب العلمية من 223 صفحة ، يحتوي على مقدمة وباين ، الباب الأول يضم ثلاثة فصول ، والباب الثاني يضم فصلين ، فكانت منهجية البحث التي نهجها المؤلف على الشكل التالي :

المقدمة

الباب الأول : مذاهب أخلاقية في الفلسفة الغربية .

الفصل الأول : تعريف علم الأخلاق وصلاته بعلوم أخرى وأهدافه .

الفصل الثاني : الأخلاق عند بعض فلاسفة اليونان .

الفصل الثالث : مذاهب أخلاقية في الفلسفة الحديثة .

الباب الثاني : مذاهب أخلاقية في الفكر الإسلامي .

الفصل الأول : مزايا الأخلاق في الإسلام .

الفصل الثاني : علماء الإسلام والقضايا الأخلاقية .

المصادر والمراجع .

الفهرس .

دراسة في العنوان (الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام)

من خلال النظرة السيميائية الدلالية لطبيعة العنوان المختار يظهر أن المؤلف يريد وضع مقابلة في موضوع الأخلاق بين علماء الفلسفة وعلماء الإسلام راجيا بذلك احتواء جميع ما يمكن أن يوجد به علماء الفلسفة وعلماء الإسلام بخصوص موضوع الأخلاق الذي يشكل أهمية كبيرة في نماء المجتمعات والتزامها بسلوك أخلاقي معين على اعتبار أن لفظة الأخلاق دلالة على موضوع إشكالي بين الفلاسفة لوحدهم من خلال فلاسفة اليونان وفلاسفة العصر الحديث وبين علماء الإسلام بصنفيهم العلماء القدامى والمحدثون .

دراسة الكتاب

المقدمة

بدء المؤلف في مقدمة كتابه إلى أن موضوع الأخلاق ليس جديدا في مجال الثقافة بعامة والثقافة الإسلامية بخاصة فقد نال علم الأخلاق - أو الفلسفة الخلقية - حظا وافرا من عناية الباحثين والكتاب سواء بعرضه على جانب المناهج الغربية أو بعرضه على جانب المناهج الإسلامية ، واعتبر المؤلف أن الأمة الإسلامية في فترة مخاض تعاني من آلام ولادة جديدة قد تكون عسرة ولكنها ستنتهي بميلاد إسلامي متجدد في القرن الخامس عشر الهجري وذلك من خلال دراسة الإنسان على أنه "حي حساس متحرك بالإرادة" أو انه "حامل قيم" أو أنه "همام وحارث" ومعنى ذلك أنع يعمل بموجب ما يعتقد من عقائد أو فلسفات ويسعى في أعماله وسلوكه طبقا لمعتقداته ، ومن هنا يرسم الكاتب طريقا مختصرا في دراسة الحضارات باعتبار أن الإنسان هو الأصل في قيامها وسقوطها ، وبموجب هذا المنهج فإن الدراسة الأخلاقية تكشف عن "جوهر" الحضارة المعاصرة من خلال التراث الفلسفي للإنسان الغربي ومذهبه الأخلاقي وبذلك نستطيع الوصول إلى فهم أعمق وواسع لجوانب القصور في حضارته التي تبدو في الظاهر مزدهرة فاتنة ولكنها في حقيقتها - بدراسة فلسفتها الأخلاقية - تكشف عن مخاطر تهدد العالم إذ أصبح التقدم التكنولوجي في خطر لأن العلم بغير ضوابط أخلاقية ، وعندما نحيط بجوانب المذاهب الأخلاقية السائدة نستطيع الحكم بقدر من الدقة على مدى قدرة استمرار الحضارة الغربية على البقاء ، وأشار المؤلف إلى أن "الأخلاق" كمبدأ أخلاقي قد تعرض لعدة تقلبات في أوروبا وأمريكا تاريخيا جنحت به من "النفعية" إلى "الوضعية العملية" و"الماركسية" و"الوجودية" من ثم أصبحت الحضارة الغربية تبدل أخلاقياتها وسلوكياتها كما تغير أزياءها في العصور المختلفة .

الباب الأول

(مذاهب أخلاقية في الفلسفة الغربية)

الفصل الأول

(تعريف علم الأخلاق وصلاته بعلوم أخرى وأهدافه)

يمكن تعريف علم الأخلاق من حيث البحث عن المبادئ وترتيبها واستنباطها والكشف عن أهميتها للحياة الأخلاقية مع بيان الواجبات التي يلتزم بها الإنسان .

ومن التعريفات لهذا العلم ما يتجه به نحو سلوك الإنسان بالنظر إلى مثل أعلى حتى يمكن وضع قواعد عامة للسلوك والأفعال تعين على فعل الخير والابتعاد عن الشر ومن خلال هذا التعريف يؤكد الكاتب على أنه بحاجة على إيضاح كثير من الموضوعات في المجال الأخلاقي من تلك الموضوعات معرفة الفرق بين الإرادة الخلقية والإرادة الطبيعية لأن أفعال الإنسان وسلوكه منها ما هو صادر عن دوافع طبيعية غريزية بحثة شأنه فيها شأن الحيوان ومنها ما يخضع للقوانين والمبادئ والقواعد فقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة إلى أن تاريخ الحضارة البشرية ملئ بالشرائع الأخلاقية ، ومن خلال استعراض التعريف السابق يؤكد المؤلف إلى أننا بحاجة إلى :

- صفة علم الأخلاق كعلم معياري وليس علما وضعيا .

- التعريف بالقيم أو المبادئ الأخلاقية .

- الإلزام الخلقي .

1 - علم الأخلاق علم معياري : وقد ذهب أتباع مدرسة علم الاجتماع إلى اعتبار علم الأخلاق علم وضعي فهدموا التصور التقليدي له ، فقد فصل ليفي بريل وأستاذه دروكايم علم الاجتماع عن الفلسفة وأطلقا عليه اسم **علم العادات** إشارة إلى أن الأخلاق هي دراسة موضوعية تجريبية لقوانين العادات الخلقية عند الإنسان . وفي اعتبار الكاتب أن علم الأخلاق - حتى كعلم عادات - لا يمكن أن يتجرد من المبادئ والقيم المعنوية التي لا تخضع للتجربة باعتبار أن الطرق التجريبية لم تحل لنا إطلاقا هذه المبادئ التي هي في جوهرها معنوية ن فإن التجربة لم تخبرنا عن حقيقة الخير أو الشر أو السعادة أو الكرم أو الشجاعة .

2 - التعريف بالقيم : أنها تعد نقطة بدء ضرورية لكل بحث سواء كانت خاصة بالعلوم أم بالأخلاق كمبادئ علم الهندسة وكمبدأ الحتمية العام في علم الطبيعة وكمبدأ الواجب المطلق في الأخلاق ، وقد أصاب المبادئ الأخلاقية في العصر الحديث ما أصاب باقي المبادئ للعلوم الأخرى

وأصبحت المكانة التي تتمتع بها هدفا للهجوم وأصبح من الخطورة بمكان إنزال القيم أو المبادئ الأخلاقية من مكانتها واستهدافها لتأثير النظريات النسبية التي سادت في القرن التاسع عشر حيث امتدت فكرة الحقائق النسبية إلى ميدان الأخلاق وغلت في القول بنسبيتها وسوت بين العادات الأخلاقية المتغيرة في كل قطر وفي كل أمة وفي كل عصر وبين القاعدة الأخلاقية الثابتة ، وبذلك خلص الكاتب إلى أن كلمة القيم أو المبادئ تشير إلى معاني الضرورة والكلية والثبات والإطلاق وبهذا يجب علينا الحذر من النظر إلى المبادئ الأخلاقية بمفهوم العصر الحاضر في الغرب المتسم بطابع النسبية والمرونة لأننا إذا أخضعنا القيم الأخلاقية إلى قوانين التغير والنسبية فلن نلبث أن نصيب الحقيقة في الصميم وبالتالي فإنه لن يلبث أن يؤدي إلى بلبلة الرأي العام الأخلاقي .

3 - الإلزام الأخلاقي : وفي نظر الكاتب يختلف عن الحتمية في القانون الوضعي فهذا الإلزام ينطوي على المسؤولية الأخلاقية لأن الأفعال تصدر عنه ككائنات أخلاقية تملك الحرية وينبغي أن يدرك كل فرد ضرورة فعل الخير وتجنب فعل الشر وأن يرغم نفسه على إتباع هذا المنهج ببذل جهد إرادي فالإلزام هو المحور الذي تدور حوله المشكلة الأخلاقية فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسؤولية وضاع الأمل في إقامة العدل وعمت الفوضى وساد الاضطراب .

المهدف من دراسة علم الأخلاق

باعتبار أن "الخلق" في اللغة هو السجية والطبع والعادة فإنها لوحدها لا تعطي معنى الأخلاق الحسنة لأنها تحمل المعنيين الحسن والقبيح ، وبذلك تأتي دراسة علم الأخلاق لكسب الأخلاق الحسنة والتخلص من الخلاق السيئة فبواسطة الجهد الدائب يمكننا أن نرتفع بأخلاقنا إلى المستويات الحسنة وبذلك بعد البحث والدراسة يمكن للإنسان أن يتخلص من أخلاقه الرديئة واكتساب الأخلاق الحسنة باعتبار أن العلم يقود إلى العمل وإلا فلا فائدة فيه ، إذ الاكتفاء بالعلم دون العمل مضیعة للوقت والجهد ، فالمهدف من علم الأخلاق كما يجدده ابن مسكويه أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة ولا مشقة .

صلة الأخلاق بالتربية

يقرر المؤلف أنه من المعلوم أن التربية الخلقية هي السياق التي تحيط بألوان التربية جميعا فمن واجب الفنان مراعاة قانون الحشمة واللياقة والمحافظة على ستر الحياء والعفاف ، وعلى المعلم الإحسان في اختيار مادة تدريبيه العقلية واللغوي ، وهكذا ينبغي إخضاع سائر ألوان التربية في وسائلها وبواعثها لقواعد الآداب وأن نقيس ذلك كله بمقاييس الفضيلة ، من ذلك فالتربية الخلقية تحتاج إلى أنواع من التعب والصبر وطول المراقبة لتكوين الملكة الخلقية حتى يصبح السلوك الأخلاقي عملا انبعاثيا

محباً إلى القلب ، أما الكسالى الضعفاء فلا تتكون لديهم الملكات بل تموت مواهبهم وتضعف عزائمهم ويحرمون من الاضطلاع بأعباء الحياة والتأثير فيها .

صلة الأخلاق بالدين

إذا نظرنا على الدين باعتباره معرفة الحق الأعلى وتوقيره ، وإلى الخلق باعتباره قوة التزوع إلى فعل الخير وضبط النفس عن الهوى فإننا أمام فضيلتين ، أحدهما : نظرية والأخرى عملية ، فالقانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية كما يرسم طريق المعاملة الإنسانية ، والفكرة الدينية الناضجة هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير فعال وحسب بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه ، والعقيدة باعتبارها المصدر الرئيسي للإحساس بقدسية القوانين الأخلاقية هي أكبر دافع يدفع الإنسان إلى الأعمال الإيجابية الخيرة ، وأقوى رادع يكفه عن إتباع الهوى ، فبعد البحث الذي أجراه القاضي البريطاني ديننج في فضيحة الوزير البريطاني وكريستين كيلر حيث مكث نحو ثلاثة شهور يحقق في هذه القضية قابل خلالها 180 رجلاً وامرأة وعكف يدرس القضية بمنظار الباحث المدقق فخرج منها بنتيجة مهمة أعلنها في قوله : "بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون"

الفصل الثاني

(الأخلاق عند بعض فلاسفة اليونان)

بدأ المؤلف في هذا الفصل بإطلالة على الجانب الأخلاقي في الفلسفتين اليونانية والحديثة ، وخلص إلى فائدتين :

الأولى : عجز الفلاسفة عن اللحاق بآفاق الشريعة الإسلامية .

الثانية : اختصار الطريق لفهم جوهر الحضارة الغربية المعاصرة والوقوف على عللها وتفسير موقفها منا .

سقراط والنظرية الخلقية

كان سقراط أثناء حياته يأبى تصديق ما يروى من شهوات الإلهة وخصوماتها لأن هذا يتضمن انهيار الدين من أساسه بينما يرى من مهام الدين تكريم الضمير النقي للعدالة الإلهية ، لا تقديم القرابين وتلاوة الصلوات مع تلطخ النفس بالإثم ، من ذلك فقد كان لسقراط إرهابات في التفكير الخلقى وتصدى لمغالطات السوفسطائية التي تستهدف زعزعة المبادئ الأخلاقية والاجتماعية مما دعاه إلى الاهتمام في فلسفته بالإنسان وسلوكه وانحصرت الفلسفة عنده في محيط الأخلاق لأنها أهم ما يتصل بالإنسان وهذا معنى قول شيشرون إن سقراط أنزل الفلسفة من

السماء إلى الأرض . وقد أطلق سقراط عبارته المشهورة "الفضيلة علم والرذيلة جهل" لأنه يرى أن الإنسان يريد الخير وإنما يهرب من الشر بالضرورة ، وأشار إلى خلود الروح وأن هذا الخلود هو الثمن المقابل لحياة النفس الفاضلة في هذه الدنيا ، ويظهر أثر النظرية السقراطية العكسي في دوائر متأخرة علماء اللاهوت في الغرب حيث يرون أن الله سبحانه هو وحده الذي يحدد الخير ويميز بينه وبين الشر ، ومهما يكن من أمر فقد اتجه سقراط اتجاه روحيا خلقيا ودينيا إذ أعلن لقضاته ولشعب أثينا أنه يضع طاعة الإله فوق طاعتهم وفوق محبته لهم .

أفلاطون والنظرية الخلقية

تابع أفلاطون أستاذه سقراط أبستمولوجيا وأخلاقيا وخالفه في تجاوز الماهيات المتحققة في الموجودات المحسوسة إلى ما سماه المثل ، وذهب كسقراط إلى أن النفس أسمى من الجسد فهي الحاصلة على الوجود الحقيقي ، وما وجود الجسد إلا وجودي ثانوي وغير مؤكد ، ولهذا فإن النفس تشقى بهذا الوجود الأرضي ويؤكد على ثلاثة أمور :

- الحكمة فضيلة العقل ككلمة الحق .

- العفة فضيلة القوة الشهوانية تلطف الأهواء .

- الشجاعة فضيلة القوة الغضبية .

وقد رمز أفلاطون بقوى النفس الثلاث - أي الفضيلة والشهوانية والعقلية - بالعربة ذات الجوادين فهما بمثابة القوتين الغضبية والشهوانية أما الحوزي الذي يشد أعنة الجوادين فهو يرمز إلى القوة الناطقة .

أرسطو والنظرية الخلقية

إذا كان أفلاطون - في نظر المؤلف - قد وضع الشروط التي ينبغي توافرها في المقاييس الخلقية فإن أرسطو هو واضع المذهب الأخلاقي المستند إلى فكرة السعادة ، فالسعادة عند أرسطو هي تحقيق شيء نهائي كامل مكثف بنفسه مادام أنه غاية جميع الأعمال الممكنة للإنسان ، ويقسمها إلى ثلاث مراتب من حيث السلوك الأخلاقي ، فالطبائع العامة الفلسفية والمجد أو الكرامة السياسية والحكمة والتأمل أو العيشة التأملية والعقلية وهي السعادة الحقة عند أرسطو ، وقد اتخذ أرسطو منذ البداية نفس موقف سقراط وأفلاطون في محاربة اللذة واعتبر السعادة غاية قصوى لفعال الإنسان .

الفلسفة الرواقية ومعالمها

ظهرت الفلسفة الرواقية - نسبة إلى المدرسة التي أنشأها زينون (264-336 ق م) - بمدينة أثينا أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان ظهورها إيذانا بتغليب الفكر الشرقي إذ أغلب أنصار

الرواقية من الشرقيين ، ويعني الرواقيون بالعناية الإلهية ألها الضرورة العاقلة التي تتناول الكليات والجزئيات مع تبرئتها من الشر ومبادئها تختلف اختلافا شديدا عن المسيحية إلا أن المفكرين المسيحيين أفادوا من أقوالها في الفضائل والردائل وفي صفات الله وفي العناية الإلهية . والفلسفة في الرواقية هي محبة الحكمة ومزاولتها وممارسة الفضيلة باعتبارها مذهب أخلاقي أو بعبارة أخرى تجعل من الخلاق الغاية والثمرة فالحكمة عندهم تشبه حقلا أرضه الخصبة العلم الطبيعي وسياحه الجدل وثماره الأخلاق. بذلك فالأخلاق تحتل المرتبة الأولى في المذهب الرواقي والبحث في الطبيعيات والمنطق هو أداة لخدمة الأخلاق ، والحكيم عندهم شخص معصوم يتقن كل أفعاله لا سلطان للأهواء عليه ، غير أن طريقة حياة الحكيم الضابط لنفسه كما يريد أهل الرواق تدخل في روعنا صورة كائن صناعي متضخم العقل على حساب الروح والعاطفة وليس الإنسان كذلك بل هو مزيج من العقل والوجدان والعاطفة ولا تتحقق سعادته الأرضية إلا بالموازنة بين هذه العناصر لتتحقق الوسطية بينها فينتج عنها السعادة .

الفصل الثالث

(مذاهب أخلاقية في الفلسفة الحديثة)

ظهر المذهب النفعي في العصر الحديث محاولا التحايل للعودة إلى تقرير مبدأ اللذة وقد بعث الفلاسفة الفرنسيون في أواخر القرن الثامن عشر تعاليم تشبه تعاليم الابقورية وازدهرت النزعة التجريبية في تفكير الإنجليز منذ يكون إلى دفيد هيوم . ومعالم المذهب النفعي تتلخص في التقاء مفكره على القول بأن اللذة أو المنفعة هي الخير المرغوب فيه والألم هو الشر الذي يجب تفاديه ومن ثم فإن المنفعة عندهم هي مقياس الخير .

النفعية عند بنتام (1748 - 1832)

اعتنق بنتام المذهب النفعي ورأى بأن الناس بطبائعهم يسعون وراء اللذة ويجتنبون الألم كالحوانات تماما مع امتيازهم عن الحيوان بإتباعهم لمبدأ النفعية لاستخدامهم للعقل لأن العقل هو الذي يحكم على الفعل بالخير . ويقيس الذات من حيث صفاتها الذاتية كالشدة والمدة والثبات وقرب المنال أو القدرة على إنتاج لذات أخرى وخلوها من الألم ، وأهم العوامل في حساب الذات عند بنتام هو عامل الامتداد أي عدد الأفراد الذين يمكن أن يشملهم الشعور بها في وقت واحد لأن ما يعنيه هو أن تشمل اللذة أكبر عدد ممكن من الأفراد ، فالبحت عن لذة الآخرين عند بنتام هو أحسن وسيلة لإعانة الفرد على تحقيق أكبر قسط من اللذة ، فالمنفعة الشخصية مرتبطة بالمنفعة العامة .

جون ستيورات (1806 - 1873)

سار على نفس الدرب الذي سبقه إليه بنثام إذ اعتبر علم الأخلاق علما وضعيا موضوعه وصف سلوك الأفراد في المجتمعات المختلفة وجعل منهج البحث الأخلاقي استقرائيا تجريبيا بعد أن كان حدسيا عقليا .

الأخلاق في الفلسفة العملية (البرجماتية)

يتضح هذا المذهب بصورة أوضح عند أحد كبار فلاسفته وهو **وليم جيمس** الذي يرى أن الخير يقوم على إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته ومعنى هذا أن من حقنا أن نعتنق مبدأ خلقيا أو معتقدا دينيا لا يحملنا على اعتناقه تفكيرنا النظري المجرد بل تدعونا إلى اعتناقه مطالب الحياة ومقتضاها ، وحاول أن يثبت أن اعتناق الدين والإيمان بالله حق لأنه يتحول عند المؤمن على سلوك ناجح في حياته فالإيمان يساعد صاحبه على احتمال الكوارث ويجعله أقدر على الصبر والعمل بعكس الإلحاد الذي يدفع صاحبه إلى الانتحار إذا أصابته كارثة ، وهذا الاعتقاد في المذهب البرجماتي في موضع نقد شديد لأنه أخضع أعظم علاقة تربط بين العبد وربّه إلى مجرد علاقة نفعية تتأرجح بين الإيجاب والسلب .

الأخلاق عند الفلاسفة الوضعيين

فلسفة الأخلاق عند الوضعيين تحولت إلى علم واقعي يدرس العادات متأثر بالمنهج الاستقرائي في البحث العلمي ومهمة عالم الأخلاق منكبة فقط على دراسة العادات والأعراف والتقاليد والآداب العامة والمثل العليا الجماعية التي تعارفت عليها المجتمعات ، والحقيقة الأخلاقية مجرد ظاهرة موضوعية يمكننا ملاحظتها .

أوجست كونت (1857)

لم يقبل كونت مذهب المنفعة أو مذهب الواجب لأن الأول يقر بالأثرة وينكر الغيرية الكامنة في طبائع البشر ولأن الثاني يقوم على أسس ميتافيزيقية يستحيل بحثها بالمنهج العلمي كما لم يقتنع أيضا بمذهب العاطفة بالمدرسة الاسكتلندية وأعجبته نظرة المسيحية للأخلاق واتجاهها إلى الحض على الإيثار والحث على تقديم العون إلى المحتاج والضعيف وتنفيذها من الأثرة التي تعد أم الرذائل ولكنه في الوقت نفسه أخذ عليها التعثر في مسيرة التقدم العالمي فانصرف عن اتخاذها أساسا للأخلاق الجديدة فاتجه إلى وضع قوانين تفسر الظواهر الأخلاقية توطئة للسيطرة عليها والإفادة منها ، والخصائص الرئيسية للأخلاق الوضعية كما نظر إليها كونت تتحدد كما يلي :

- أنها تقوم على أساس العلم الوضعي وتحقق صفاته ولهذا فهي حقيقية .

- أن الأخلاق نسبية وتستمد نسبيتها من نسبية المعرفة وليس لها طابع مطلق كما يرى كانط.
- تتحدد المشكلة الأخلاقية في أن يبذل الإنسان قصارى جهده لكي يغلب غرائز المودة بين الناس على دوافع الأثرة .
- وجود الميول الغيرية وجودا فطريا في النفس البشرية ويسمى هذه الميول "المودة" .

إميل دوركايم (1858 – 1917)

تابع دوركايم أوجست كونت في فلسفته الوضعية وجعل علم الاجتماع محور دراساته مستهدفا إقامة الاجتماع علما واقعيا مستقلا فالظاهرة الاجتماعية تؤثر في الفرد وتوجه سلوكه على غير إرادة منه ، بل لا يمكنه مقاومة تأثيرها وهي تخضع لقوانين علمية كالظواهر الطبيعية وتنشأ بنشأة المجتمع لأنها من صنع العقل الجمعي ولها صفة الإلزام كما أنها تفرض نفسها على الأفراد ، وفي إقامة دوركايم للمذهب الأخلاقي جعل القيم الأخلاقية ومثلها العليا كالظواهر الاجتماعية فهي وليدة المجتمع الناشئة عن اجتماع الناس بعضهم ببعض ودور علم الأخلاق هو دراستها كما هي بالفعل مرتبطة بالزمان والمكان .

لوفي برييل (1897 – 1939)

- ناصر برييل المذهب الاجتماعي في الأخلاق حيث نظر إلى أنواع السلوك الإنساني كظواهر طبيعية فحسب منتقدا فلسفة الأخلاق حيث اقترح علما للأخلاق يحل محلها من خلال ثلاثة أمور :
- فلسفة الأخلاق ليست علما معياريا يحدد ما ينبغي أن تصبح عليه الأفعال الإنسانية لأن العلم هو عبارة عن دراسة وضعية للظواهر وقوانينها .
 - لا توجد صلة منطقية بين قواعد السلوك وبين المبادئ التي يستنبطها الفلاسفة من هذه القواعد بدليل أن الفلاسفة مختلفون في المبادئ متفقون في قواعد السلوك .
 - يضع الفلاسفة قضيتين لا يمكن قبولهما الأولى افتراض وحدة الطبيعة الإنسانية الفردية والاجتماعية والثانية جعل الضمير أمر مطلق بينما هو نتاج الأيام ووليد التجارب والعادات.

بطلر

عارض **بطلر** مذهب اللذة والمنفعة إذ يرى بأن الإنسان كثيرا ما يتصرف بدوافع لا ترمي إلى تحقيق منفعته أو لذته بل إن الأفعال الإنسانية تقصد إلى تحقيق غاية أسمى من سعادة الفرد ، وأقر بوجود التزعات الغيرية ، ووجه ضربات قاصمة لمذاهب اللذين والأنانيين جميعا حيث أكد وجود دوافع طبيعية نزيهة لا تهدف إلى تحقيق لذة فردية أو منفعة شخصية ، وكان **بطلر** رجل دين يؤمن بالنصرانية وتعاليمها ، ومن هنا كانت معارضته أيضا لتزعات الشك والإلحاد رغبة منه في توكيد تعاليم الدين .

إمانويل كانط (1724 – 1804)

نظر **كانط** إلى المسيحية باعتبار أنها تقوى ومحبة لله وتأثرت فلسفته بهذه العقيدة واستبعد مذهب السعادة الشخصية ولم يوافق على مذهب العاطفة الأخلاقية مع اعترافه بالفضيلة ، ولكنه في الوقت نفسه استبدل بالمنفعة الحسية الرضا النفسي . ولقد كان **كانط** من أوائل القائلين بوجهة النظر المثالية فأراد أن يحرر السلوك الأخلاقي من قيود الميول والأهواء ولهذا استبعد اللذة والمنفعة والسعادة غاية قصوى لأفعال الإنسان الإرادية إذ جعل الباعث يقوم في الإرادة نفسها ، وبذلك ارتدت عنده الأخلاقية إلى مبدأ الواجب ، والواجب عند **كانط** هو ضرورة القيام بفعل عن احترام للقانون .

الباب الثاني

(مذاهب أخلاقية في الفكر الإسلامي)

الفصل الأول

(مزايا الأخلاق في الإسلام)

تظهر حقيقة النزاع في الغرب حول فصل الدين عن مجالات النشاط الإنساني ومقوماته في مجالات العلم والأخلاق والاقتصاد والسياسة وغيرها بسبب ظروف وأوضاع أوروبا بنفسها دون غيرها إذ كان لرجال الدين هناك سلطات هائلة في رعاية الحاجات الدينية للناس وهو الذين يؤدون الشعائر وينظمون العبادة ويوجهون حياة الناس وسار بهم هذا نحو دعم نفوذ الكنيسة ذاتها فرجالها قد كدسوا ثروات هائلة وكان لهم نفوذ سياسي كبي وفي معظم الأحيان كانوا يتحالفون مع النبلاء والإقطاعيين ويشجعونهم على الاستمرار في استبدادهم وربما كان هذا هو السبب الذي أدى بأوجست كونت إلى القول بأن الديانة المسيحية قد انقضت زمنها ولا بد من الاستعاضة عنها بديانة أخرى وهي الفكرة التي صحت الجمهورية الفرنسية الثالثة التي فصلت بين الدين والدولة . ولكن مرد الخطأ هنا أنه إذا كانت هذه الظاهرة صادقة فيما يتعلق بالديانة المسيحية في أوروبا فهي ليست كذلك بحال فيما يتعلق بتاريخ التفكير الإسلامي لأن الأمر يختلف اختلافا تاما بالنسبة للمسلمين فقد شيدوا صرح حضارتهم وأقاموا تلك الدولة العظيمة التي امتدت من الأندلس إلى القارة الآسيوية ، وذلك بناء على فهمهم الصحيح للإسلام ، فالإسلام ليس مظهر كهنوتية ولا حياة منعزلة عن الواقع تبغي الفرار منه بل هو نظام كامل للحياة يوجه الإنسان لكي يحقق كمالاته التي استحق بها مقام الخلافة .

يتناول الحديث في الأخلاق لدى المسلمين انطلاقا من ثلاثة ميادين :

الأول : ميدان الفلسفة التقليدية التي يعبر عنها أمثال : الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد الذين اقتصرُوا في أكثر الأحوال على الدراسة النظرية متأثرين بالفلسفة اليونانية الدخيلة على المسلمين .

الثاني : ميدان علم الكلام .

الثالث : ميدان الزهد والتصوف .

معالم القانون الأخلاقي في القرآن الكريم

لقد حفظ القرآن القانون الأخلاقي الذي جاء به موسى عليه السلام ولكن القانون لم يأت على شكل كتلة واحدة كالوصايا العشر ، ولكنه ورد كآيات متفرقة في عدد من السور ، وهكذا ظلت أسس القانون الأخلاقي محفوظة بالقرآن ، فالقرآن يوضح أعمال الرسل ويؤيد شرائعهم ويوحد مختلف الاتجاهات في إطار قانوني أخلاقي واحد .

فالبيان القرآني أفاض في دم الأثرة والبغي والعلو بينما وزع القيم الأخلاقية قسمة ثلاثية في طرفها الأعلى فضيلة الإيثار والطرف الأدنى رذيلة الاستئثار ، والتعامل مع الناس بالفاحش من القول يستوجب غضب الله ، فالفضيلة في القرآن ترتقي بالنفس الإنسانية لتصبح عملا انبعاثيا محببا إلى القلب ، فإذا كان المجتمع هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء الدولة فإن العناية بالفرد وهو لبنة في بناء المجتمع يصبح ضروريا وأساسيا لقوة البناء ومنعته . وهكذا فالقرآن يحدد الفضيلة ويسمو بالإنسان للارتقاء الأخلاقي المنشود ويضع له الخطة التربوية لبناء المجتمع الفاضل :

1 - في مجال الفضيلة الشخصية :

- تحريم الخمر وتناول أي مسكر والقضاء على مصادر الخمر .

2 - الفضيلة في العلاقات بين الأفراد :

- إلقاء التحية وردّها .

- اجتناب الظن .

- الاستئذان في الدخول لبيوت الآخرين .

- البداية في النهي عن المنكر بالنفس والأهل والأقارب .

3 - الفضائل الجماعية والعامة :

- توحيد العلاقة في الأخوة الإنسانية (الأسرة العالمية الكبرى) .

- عدم إيذاء الآخرين والعدل مع العدو .

- دعوة المؤمنين ليكونوا جماعة واحدة متماسكة .

- وحدة العبادة والاستعانة وطريق الهداية .

4 - فضيلة المعاملات الدولية وبين الأديان :

- قوانين الحرب الشرعية لدفع العدوان وتوقف الحرب عند انتهائها .

- احترام العهود والمواثيق في العلاقات الدولية .

طرق الإلزام الأخلاقي وتنوعها

تنطوي الشرائع الوضعية على الإلزام ولكنه إلزام سطحي يتسم بالنقص حيث يقف عند حدود الجرائم دون أن يتناول الأخلاق وينص على التخويف بالعقوبات الدنيوية دون الأخروية ، ولكن القرآن يمتاز عن الشرائع باستكمالها طرق الإلزام وقد عددها وفصلها وشعبها كما أوضح الكبائر والصغائر والأخلاق والآداب وتكاد تنحصر طرق الإلزام في القرآن في ستة أنواع كما حددها الشيخ ندیم الجسر في بحثه الجامع بين دراسة النفس والأخلاق في الإسلام وهي :

1 - الإلزام بوازع العقل :

فمزية الإسلام الكبرى على باقي الشرائع هي منحة العقل والسلطة في الفهم واستنباط الأحكام والآيات التي تحت على تحكيم العقل وترك إتباع الظن لا تكاد تخصي وآيات النظر العقلي والحض على النظر والتفكير والتدبر كثيرة في القرآن .

2 - الإلزام بوازع الضمير :

والإلزام العقلي لا يتم إلا للقلة من الحكماء ولكن الكثرة الغالبة لا يكفيها وازع العقل وتحتاج إلى وازع الضمير كزاجر يبعدها عن الذنوب التي تخفى على أعين الناس ولا ينالها العقاب الأرضي بواسطة البشر .

3 - الإلزام بالترهيب والترغيب :

ففيما يتصل بالترهيب فإن الله سبحانه يحذر العاصي من انتقامه في النفس والأولاد أو في الأموال والثمرات هذا في الدنيا أما في الآخرة فالتحذير من أهوال القيامة وعذاب النار ، وفي جانب الترغيب وعد بخير الدنيا وزيادته لمن يشكر ، وحفظ النعم على من يحافظون على سلوك طريق الاستقامة ووعد المتقين بالجنة في الآخرة بما فيها من نعيم دائم .

4 - الإلزام بوازع الكفارات :

وهو تفويض الله إلى العبد أن يعاقب نفسه بنفسه جزاء لما اقترفت يداه وتكفيرا من بعض الذنوب كالصوم وهي عقوبة جسدية أو عتق رقبة أو إطعام المساكين وهي عقوبة مالية .

5 - الإلزام بوازع الرأي العام :

وهو الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قدر الطاقة ولا سيما في النهي عن منكرات الأخلاق التي لا تمتد إليها يد القوانين .

6 - الإلزام بوازع السلطان :

وهي العقوبات المختلفة التي فرضها القرآن على بعض الجرائم وفوض أمرها إلى الحكام ، فالله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن .

وبذلك فالقرآن جمع الوازعات كلها حول الإنسان ولم يكتف بواحد منها أو اثنين كما اكتفت الشرائع والقوانين الأخرى واجتماع الوازعات كلها قد يكفي عند أكثر الناس لأن إحاطتها بالإنسان تردعه وتزجره وتنهاه .

الفصل الثاني

(علماء الإسلام والقضايا الأخلاقية)

أصول المنهج الأخلاقي لدى علماء المسلمين

تنبع أخلاقيات الإسلام من أصلين :

أولهما : عقيدة التوحيد التي جردها الإسلام ونادى بها رسول الله ﷺ بالإضافة إلى الشريعة التي أنزلها الله عليه ، فهي الأساس الضروري للحياة الإنسانية الطيبة لأنها تضع للمجتمعات البشرية النظم الملائمة لحياة الفرد وحياة الجماعة وفقا لكافة القيم الخلقية العليا .

ثانيهما : الإيمان باليوم الآخر كضرورة توجه سلوك الإنسان إذ يزوده باستعداد نفسي للتضحية بالمتاع الزائل وتحمل الصعوبات والمشاق لبلوغ حنة الله تعالى ورضوانه .

لهذا فموقف علماء الإسلام في دائرة الإسلام وقد عنوا في علاج المشكلة الأخلاقية بتفسير الكتاب الكريم وحرصوا على الاستضاءة بالسيرة النبوية لأن الإسلام جاء مخاطبا للإنسان حاثا إياه على الارتفاع إلى المستوى الأخلاقي اللائق به ليهيأ لخلافة الله تعالى على الأرض ، لذلك فالمنهج الذي اتبعه علماء المسلمين يتصل بالتصور الصحيح لحقيقة الإنسان ودورته في الحياة المبتدئة بخلق آدم ثم إهباطه إلى الأرض ابتلاء واختبارا ومصاحبته مع شريعة الله تعالى التزاما بأوامرها وتنفيذا لأحكامها .

الراغب الأصفهاني (402 هـ)

يعد الراغب الأصفهاني أفضل من كتبوا في الاتجاهات الأخلاقية من خلال كتاب سماه "الذريعة إلى مكارم الشريعة" فقد قاوم تيار الغزو الثقافي الأجنبي ومزج النظر العقلي التأملي في موضوعات الغيب بنبضات الحياة الأخلاقية المثلى للإنسان أثناء سعيه في الأرض نحو غاية الغايات وهي السعادة الأخروية الأبدية وأعطى مدلولاً مبتكراً للحرية بشقيها الميتافيزيقي والأخلاقي لما أثبتته من حرية الإنسان في اختيار أفعاله .

ابن القيم الجوزية (751 هـ)

يرى بأننا لا نستطيع فهم الإنسان وتفسير سلوكه وأخلاقه إلا إذا عرفنا حقيقته فليس هو الظاهر أمامنا بجواره وأعضائه التي تصور فقط الهيكل الخارجي وإنما حقيقته اكمن في داخله أي في قلبه فمن أراد إصلاح أخلاقه فعليه البدء بإصلاح قلبه .

عبد الحميد بن باديس (1889)

ويتمسك بالقرآن للإصلاح في كافة المجالات ومنها الأخلاق ، فقد بين لنا مكارم الأخلاق ونفعها ومساوئ الأخلاق وضررها ، والتمسك بالقرآن هو الحل الوحيد لإصلاح وعلاج المشكلة الأخلاقية .

الدهلوي

يتعامل مع الإنسان في حياته وحركته الدائبة الواقعية استرشادا بكتاب الله وسنة رسوله لا الإنسان الساكن أو الإنسان في عالم المثل كما تخيلته الفلاسفة ، ويزيد الإمام ولي الله الدهلوي على هذا ويضخم هذا التصور ويغذيه بعمله وتجاربه الوجدانية فيجعلنا نعيش الإنسان المؤمن الحريص دائما على الارتفاع لمستوى نفسه بالعبادات وتصحيح سلوكه في ضوء العلوم الفقهية الدالة على اجتياز سلوك الطريق المستقيم ، فقد تجاوز الإمام الدهلوي علاج قضية الأخلاق في نطاق العقل النظري باحثا في أسرار الدين بمنهج علمي سماه علم المصالح والمفاسد مبرهنا على أن العبادات تثمر مصالح أي فوائد نفسية وأخلاقية مرتفعا بالأخلاق العملية المتحققة بالطهارة والإخبات لله تعالى والسماحة والعدالة إلى مستوى الاقتراب من الملائكة .

كيفية اكتساب الأخلاق

1 - طرق النظافة والطهارة :

فهي شرط في كل الأعمال التعبدية لله تعالى واستقبال كلامه المتضمن للترسنة الأخلاقية .

2 - الإخبات لله تعالى :

بالتجرد من الرذائل البشرية وعدم قبول النفس نقوش الحياة الدنيا وعدم الاطمئنان بها ، وذلك بالتفكير وهو أنواع :

- التفكير في آلاء الله .

- التفكير في صفات الله كالعلم والقدرة والرحمة والإحاطة .

- التفكير في أفعال الله الباهرة .

- التفكير في الموت وما بعده .

3 - السماحة والعدالة :

وتكتسب من خلال :

- الزهد .
- القناعة .
- الجود .
- قصر الأمل .
- التواضع .
- الحلم والأناة والرفق .
- الصبر .

بهذا ختم المؤلف كتابه هذا بمجموعة من المبادئ والشروط حتى يؤدي مشروع علاج المشكلة الأخلاقية ما أنيط به من كشف النقاب عن طرق تناولها سواء في المجتمع الأوروبي أو في المجتمع الإسلامي من خلال عقد مقارنة بين الحضارتين ، على العلم بأن الحضارة الإسلامية بكل ما احتوته من علماء وفلاسفة ومفكرين وباحثين كان لها الفضل في الإحاطة بالإشكالية ومعالجتها من جميع الأصعدة وباستخدام كل الوسائل الممكنة من خلال قاعدتين لا يتطرق إليهما الشك وهما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ اللذين فيهما علاج المشكلة وتقويمها .